

Texte 2

Extrait de *Bandar Shah de Tayyib Sālih*

صار ذاته وأكثر. اليوم، سوف يجهل العاقل ويسكر المصلي ويرقص الوقور. وينظر الرجل إلى زوجته في حلقة الرقص فكأنه يراها لأول مرة، لا بأس عليهم لأنهم يؤكدون أسباب الحياة وسط كل ذلك العدم. وبين الحين والحين تجيء كوكبة منهم يتسابقون على الحمير في عثار وغبار، فكأنهم إعصار نفثته الصحراء، لا يموت، ولكنه يدخل الزحمة فتغلي وتمور. يجيئون مثل حبات القمح في كوم القمح، كل حبة قائمة بذاتها وكل حبة تنطوي على سر عظيم. وأحياناً يصل رجل على حمار له سرج ولجام، حسن الهيئة حسن الهندام، فيعلن الحمار عن قدوم صاحبه. يجيئون فقراء كلهم بدرجات متفاوتة، فيحتويهم فلك منتظم حول مركزه يدور بقدر معلوم. يجيئون ضعفاء فيعودون أقوياء، ومساكين فيعودون أغنياء، وضالين فيجدون الهدى. اليوم، سوف تتلاحم الأجزاء، فيصبح كل واحدٍ أحداً.

كان الناس قليلين في ذلك العهد، يسكنون في قرى متباعدة، تبدو أضواؤها الخافتة بالليل كأنها معلقة في السماء، وتتناهى الأصوات من شاطئ إلى شاطئ ضعيفة لا تميزها الأذن. ولكنهم كانوا يعلمون ما يجري عبر النهر كأن بين الضفتين جسوراً غير مرئية. يعلمون من سقى زرعه بالليل ومن سقى بالنهار، من مَرَضَ ومن وُلِدَ ومن مات ومن تزوج، ومن الذي باع ومن الذي اشترى. وكانت تربطهم بعضهم ببعض أواصر وقرابات وأنساب، وتجمعهم الأسواق والمعاملات، يتبادلون بذور «التَّيراب» وشتل النخل وفحول البقر والحمير، ويجمع بينهم المداخون والمغنون وحَفْظَةُ القرآن، هكذا حالهم من مُلتقى النهرين إلى ما وراء حدود مصر. لذلك لم يكن عجباً أنهم تسامعوا بنبأ الاحتفال الكبير في ود حامد، فجاؤوا من قبلي ومن بحري، من السافل والصعيد، بالمراكب عبر النيل، وبالحمير وسيراً على الأقدام، يحملون هداياهم، تمر وقمح وشعير ولوبيا وبصل وسمن ودُهْن، كل حسب طاقته، هذا يحمل ديكاً وهذا يحمل حملاً أو عتوداً⁽¹⁾، يجيئون مشتتين مثل رذاذ الغيث، ثم ما يلبثون أن يتكاثفوا ويتلاحموا في خضم عظيم يجيش ويزخر بحياة جديدة أرحب من حصيلة أجزائه. وكان «ضو البيت» هو قطب الرحى في ذلك اليوم، عز الصيف. تصل المرأة طرف الحي وعرقها يتصبب لأنها قامت من أهلها مع طلوع الشمس ووصلت والشمس في كبد السماء، فتسمع أصوات السرور وتشم روائح الوليمة، وتسري إليها عدوى الطمأنينة من الجمع الغفير الذي غرز بئرق الحياة وسط ذلك العدم فتزغرد من بعيد، فرحاً بوجودها بادئ ذي بدء، ثم اعلاناً للملأ أنها أيضاً هنا الآن، ولها في لهاتها صوت يعرب عن ذلك كله. وما يلبث صوتها أن يندمج في بقية الأصوات، فيضيف إليها نغمة، لا تميزها الأذن أول وهلة، ولكن الذي يرهف السمع يدرك أنها موجودة، وأن صوتَ الجميع لا يكون جميعاً دونها. يصلون واحداً واحداً، واثنين اثنين، ضعافاً هزلاً، كل ظهر قد تقوس، وكل كاهل قد ناء بأعباء الحياة والموت، فيتلقفهم الجمع الكبير، فإذا كل واحد قد

(1) الحمل الوضع.